مكتبة الإسكندرية القديمة(*)

عرض وتحليل

د. عبد الله حسين متولى

مدرس بقسم المكتبات والوثائق والمعلومات

كلية الآداب – جامعة القاهرة

منذ نحو ٢٣٠٠ سنة كان هناك صرح ثقافى وحضارى تفخر به مدينة الإسكندرية، وبعد اندثار هذا الصرح شهد السادس عشر من شهر أكتوبر الماضى إعادة بعث وإحياء له ولكن فى صورة غزلت ملامحها بخيوط عصرنا الرقمى وتكنولوچيا المعاصرة إنها «مكتبة الإسكندرية» التى عرض فيما يلى من سطور بكتاب يتناول ماضيها القديم ، إنه كتاب «مكتبة الإسكندرية القديمة» الذي توفر على إعداده الدكتور مصطفى العبادى المتخصص فى الدراسات الأوربية بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية، فتوفر له بذلك كل من : عمق الدراسة بحكم المهنة – وعمق المعايشة – بحكم النشأة والسكن .

وقد استهل كتابه بمقدمة استعرض فيها نشأة مدينة الإسكندرية فى شتاء ٣٣٢ – ٣٣١ ق.م، وكيف أنها لعبت وما تزال تلعب حتى الآن دوراً حيوياً كمنفذ ملاحى لمصر رشحها لأن تكون عاصمة لمصر طيلة ألف عام تقريباً، حتى جاء الفتح العربى لمصر عام ٦٤٢م ونقل عمرو بن العاص العاصمة إلى الفسطاط، ومع ذلك طلب هذه المدينة العريقة تحتل المكانة الثانية في مصر، وعايشت مظاهر ازدهار واندحار كثيرة نتيجة لموقعها الاستراتيچى على البحر الأبيض المتوسط والذى أهلها لأن تحتل مكانة الصدارة على الصعيد التجارى الذى أتاح الفرصة للارتقاء والتطور فى المجالات الأخرى كالصناعة والزراعة والثقافة والفكر وللعلم خاصة العصرين اليونانى والرومانى .

ثم أعقب هذه المقدمة المكثفة بسرد لصلب الكتاب فى شكل دفقات معلوماتية متحررة من قيود الفصول والأبواب، بدأها **بدفقة تمهيدية** تعرف بأهمية المكتبة كمركز للإشعاع الثقافى والفكرى وكيف أنها تركزت فى فئتين خلال الحضارتين الفرعونية والبابلية وهما : المكتبات الخاصة ويمتلكها صفوة المثقفين والأثرياء، والمكتبات العامة التى يؤسسها الملوك والحكام أو تتبع أحد المعابد، وكان يطلق على تلك المكتبة الملحقة بالمعبد «دار الحياة» ومن أشهرها مكتبة رمسيس الثانى بمعبد

(*) – مصطفى العبادى (١٩٧٧) مكتبة الإسكندرية القديمة . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٧ ، ٧٨ ص .

الرمسيوم بمدينة طيبة ، والمكتبة الملحقة بمعبد الإله تحوت بمدينة إدفو ، ومكتبة آشوربانبيال في نينوى بالعراق التى حوت أكثر من عشرين ألف من اللوحات الكتابية ، ومكتبة أوجاريت (أو رأس شمرة) على الساحل السورى .

ثم عرج بعد ذلك على صلب موضوع اهتمام الكتاب ألا وهو «مكتبة الاسكندرية القديمة» مشيراً إلى أنها تعد أكبر مكتبة فى العالم القديم، والقبلة الثقافية للعلماء والأدباء من كل حدب وصوب، يؤكد ذلك أنها ما تزال محط دراسة واهتمام العلماء المحدثين على احيائها مع أوائل القرن الحادى والعشرين ، ولعل السبب فى ذلك أنها لم تكن مكتبة فحسب، ولكنها كانت مشعلاً للحضارة ومعهداً للبحث ، والأساس الذى قامت عليه جامعة الاسكندرية القديمة .

أما **الدفقة الثانية** فعرض فيها المؤلف لنشأة المكتبة مشيراً إلى أن تلك النشأة تمت فى مطلع القرن الثالث ق . م فى عصر الملك بطليموس الأول، الذى كان على درجة كبيرة من الثقافة والذكاء حتى أنه كتب أخطر كتاب فى سيرة الإسكندر الأكبر، حيث نصحه «ديمتريوس الفاليرى» الأثينى وهو من الشخصيات الفذة التى اشتغلت بالسياسة والفلسفة معاً – بإنشاء مجمع علمى تلحق به مكتبة تجمع فيها الكتب من جميع أقطار الأرض، وأطلق على هذا المجمع أو المعهد اسم «الموسيون Mouseion » وهى كلمة يونانية تعنى ربات الفنون والعلوم اللائى يوحين للشاعر والكاتب والمفكر ومنها اشتقت كلمة Mu-seum أى متحف . وبالفعل رصد الملك بطليموس الكثير من المال لإنشاء الموسيون وشراء الكتب وجذب العلماء والمفكرين له وعين الفاليرى مشر عليه .

ويذكر المؤلف أن ثمة دافع خفى آخر إل جانب الولع بالثقافة والعلم هو الذى دفع بطليمو إلى التحمس لفكرة بناء الموسيون، ألا وهو جع الإسكندرية تنافس أثينا كمركز للثقافة والعلم ف العالم القديم .

وقد ألحقت بالموسيون مكتبة خاصة كبرى أطلق عليها المؤرخون اسم «المكتبة الكبرى» أو الا تمييزاً لها عن «المكتبة الإبنة» وهى المكتبة الملحة «بمعهد السرابيوم» الذى أنشىء فى عصر الملا بطليموس الثالث للإله «سرابيس» الإله الرسم الجديد للدولة البطلمية ، وقد أدى النمو المطر لمقتنيات مكتبة الموسيون إلى وضع الكتب التر ضاقت بها فى مكتبة السرابيوم التى امتدت إليه الحركة العلمية والثقافية من الموسيون وصار المحاضرات والدروس تلقى فى أروقة المعبد والغرف الملحقة به .

بعد ذلك انتقل الكاتب فى **ثالث دفقا كتابه**، إلى الحديث عن المآتى والمناهل التى تم مر خلالها تجميع الكتب لتلك المكتبة العريقة ملمح إلى أنه على الرغم من أن «الموسيون» معهد أغريقى فى الأساس إلا أن جهود الملوك البطالمة وعلمائ العظماء حشدت جميعها فى اتجاه ضم مكتبتهم لأكبر قدر من تراث الإنسانية الفكرى، وأكد ذلك المنحى بما نصه «.. لأن ذلك الملك بطليموس فيلادلفوس الذى كان على معرفة بالفلاسفة وغيرهم من المؤلفين المشهورين بعد أن اقتنى الكتب – ودفع ثمنها من الأموال الملكية – من جميع

أرجاء العالم قدر المستطاع ، مستعيناً فى ذلك بدمتريوس الفاليرى (وغيره من النصحاء) ، إنشاء مكتبتين : واحدة خارج القصر (مكتبة السرابيوم) والأخرى داخل القصر (مكتبة الموسيون) . وكان بالمكتبة الخارجية ٤٢,٨٠٠ مجلداً ، وفى مكتبة القصر ٤٠٠,٠٠٠ مجلداً مختلطاً و ٩٠,٠٠٠ مجلداً مفرداً ومختصرات ، كما ذكر كاليماخوس ، أحد رجال القصر وأمين المكتبة الملكية ، ... وأراتوستيس أمين المكتبة ذاتها من بعده بقليل» .

ويستدل من ما جاء فى هذا النص أن مكتبتى الإسكندرية (الموسيون والسرابيوم) ضمتا معاً أكثر من نصف مليون مخطوطة (٥٣٢,٨٠٠ على وجه التحديد) وقد تنوعت مصادر الاقتناء التى لجأ إليها لبناء وتنمية المقتنيات كان فى مقدمتها : شراء مكتبة أرسطو التى كانت فى مدرسته بأثينا التى كانت تعتبر أكبر مكتبة فى عصره، ولعل هذا هو مبعث الخطأ الشائع بإطلاق إسم مدرسة أرسطو على مكتبة الإسكندرية ، هذا بالإضافة إلى بعض الرسائل، فيما يمكن أن يوصف بنظام للحجر على الكتب التى يتم العثور عليها على متن السفن التى ترسو على الميناء، حيث كان يتم تفتيش تلك السفن ثم تتم مصادرة أى كتاب يعثر عليه فيها، ثم يؤخذ هذا الكتاب إلى المكتبة فإن كانوا فى حاجة إليه ، احتفظوا به ، واستنسخوا منه نسخة تقدم إلى صاحب الكتاب مع بعض التعويض المالى، ولعل ذلك يوضح إلى أى مدى كان القائمون على أمر المكتبة حريصين أشد ما يكون الحرص على اقتناء أصول الكتب والمخطوطات الأصلية دون النسخ المستنسخة منها تجنباً لأى شائبة خطأ أو نقصان أو زيادة أو تزييف لمتن الكتب ، وبالإضافة إلى المصدرين السابقين ،كان هناك مصدر آخر لا يقل عنهما فى الأهمية إن لم يزد ألا وهو تأليف كتب بهدف أن تضمها المكتبة بين جنباتها ومن أمثلتها: الكتاب الذى توفر على تأليفه الكاهن المصرى «مانيتون باللغة اليونانية عن تاريخ مصر الفرعونية ، وكتاب «تاريخ العراق القديم» الذى كلف الكاهن بيزوسوس بمدينة بابل بتأليفه باللغة اليونانية كى يتم اقتناؤه فى المكتبة ، بالإضافة إلى مجموعة ضخمة من الكتب مهداة من حاكم الهند فى النصف الأول من القرن الثالث ق . م للملك بطليموس الثانى فى إطار دعوته له لاعتناق البوذية ، وأخيراً بعض الكتب المترجمة إلى اللغة اليونانية ومن أبرزها ترجمة التوراة المعروفة بإسم الترجمة السبعينية أوثق نصوص التوراة .

وبنهاية العصر البطلمى أى فى القرن الأول قبل الميلاد بلغ إجمالى المقتنيات ٧٠٠,٠٠٠ مخطوطة ، وقد توفر على تنظيم هذا العدد الضخم عدد من علماء الموسيون فى مقدمتهم «كاليماخوس» أبرز شعراء القرن الثالث ق . م الذى أعد فهرساً أو سجلاً بعناوين الكتب التى فى المكتبة مصنفة فى قطاعات موضوعية عريضة، وتحت كل قطاع تم تسجيل إسم المؤلف ومكان ميلاده وأساتذته والمدارس التى تعلم فيها ونبذه عن حياته وكلمات من بداية بعض أعماله .

أما **آخر دفقات الكتاب** والتى شغلت النسبة الأكبر منه، فهى التى خصصها المؤلف للحديث عن مصير المكتبة وكيفية إندثارها وهى إشكالية ما إذا كانت المكتبة قد دمرت أم أحرقت أم بليت بفعل الزمن وهى إشكالية تعددت الأقاويل حولها

قرابة قرنين من الزمان خاصة وأن منها ما يوجه أصابع الاتهام إلى العرب المسلمين، وفى المقابل ينبرى الكثيرون للدفاع عن العرب، ولعل مرد هذا التناحر هو عدم كفاية الأدلة والمعلومات التاريخية الوثائقية حول هذا الموضوع، ومع ذلك فقد حاول الكاتب أن يحسم الأمر فى حدود ما وقع تحت يده من وثائق فذكر أن مكتبة الإسكندرية (أو بمعنى أدق مكتبتى الإسكندرية) لم تلق مصرعها دفعة واحدة، وإنما تلاحقت عليها الكوارث الواحدة تلو الأخرى على مدى أربعة قرون أو أكثر .

فبالنسبة لمكتبة الموسيون من أولى الكوارث التى لحقت بها عام ٤٨ ق . م هى امتداد الحريق الذى أضرمه يوليوس قيصر فى السفن المصرية الراسية على الميناء إلى مقتنياتها، ثم إحراق الإمبراطور دقلديانوس عام ٢٩٦م . لجميع الكتب التى تبحث فى صناعة الذهب والفضة ، أما مكتبة السيرابيوم فيذكر المؤلف أنه بعد احتراق شقيقها الكبرى (مكتبة الموسيون) أثناء حرب يوليوس قيصر ازدادت أهميتها على مر السنين ، ويبدو أن وجودها فى المعبد الكبير كفل لها الحماية طالما ظل هذا المعبد مكاناً مقدساً فى نظر الدولة أى فى العصر الوثنى الرسمى للإمبراطورية حدثت إغارة على كل ما يمت بصلة لها ومن بينها معبد السرابيوم ومكتبته العظيمة، حيث أصدر الإمبراطور ثيوديسيوس أمراً عام ٣٩١م بتدمير جميع المعابد التى فى مدينة الإسكندرية، وكان من بينها معبد السرابيوم الذى تم هدمه وتحويله إلى كنيسة .

ويجمل بنا فى ختام هذا العرض للكتاب أن نسرد فى إيجاز الدلائل التى ساقها المؤلف لتفنيد إدعاء حرق عمرو بن العاص للمكتبة عند فتحه لمصر معتمداً فى ذلك على ما ذكره المؤرخ البريطانى تبلر فى كتابه (فتح مصر) والذى من أهمها دليلان : الأول أنه منذ القرن الرابع الميلادى نقلت كثير من مخطوطات الإسكندرية من البردى وكتبت على الجلد لقدرته على التحمل أكثر من ورق البردى، فالجلد لا يصلح وقوداً ، الثانى أن الطريقة الاقتصادية التى لجأ إليها عمرو بن العاص لحرق الكتب خيالية ومدعاة للسخرية فإذا كان الحريق قد تقرر فعلاً وبدافع دينى لاحرقت المكتبة دفعة واحدة فى مكانها بدلاً من توزيعها بين الحمامات على مدى ستة أشهر، مما يجعل الكتب عرضة لتسربها بسهولة تامة . ويخلص بتلر من تحليله إلى أن قصة حرق العرب المسلمين لمكتبة الإسكندرية مُختلفة، وإنه لم يجدوا بالإسكندرية مكتبتها عند فتحهم لها .

رقم الإيداع : ٦٥٣٤
مطابع الدار الهندسية ت : ٥٤٠٢٥٩٨

obeikandi.com